

مشكلة الإصلاح في المجتمع الجزائري

أ.د. محووظ سمارتي

الإصلاح تغيير هادئ، ليس بنهضة تجمعت فيها أفكار مجردة، ولا بثورة تتدفق كالسيل العارم. فهو بين هذين التيارين يحاول إزالة البالي دون أن يهدد البنية الاجتماعية. يلبي رغبة المجتمع في التجديد ويدفعه بلطف إلى سلوك مغاير للعادات والتقاليد البالية التي تعترض طريقه وتميت حيويته، فهو حرب على هذه الثقافة الباردة التي تغلغت في أعماق المجتمع حتى أصبح أسيرا في يدها يتغذى بتعاليمها، مطيعا لأوامرها، لا يرى لها بديلا فهي مقدسة عنده، يحارب من حاربها، ويركن إلى من يحارب على سكونها واستمراريتها. إنها معركة بين التقاليد والعادات البالية وبين التجديد والحداثة.

إنه صراع مرير لا يصبر عليه إلا من أوتي الحكمة والحكمة، ومحبة القوم. فالمصلح يعيش حقا أزمة مجتمعه؛ تعترضه عقبات يريد تذليلها فتتكالب عليه الجماعات و الأفراد، وتسمعه ما لا يحب ويرضى، وتلصق به التهم الباطلة، والافتراءات الخسيسة، عساها أن تقضي على عزيمته، وترده ذليلا مستكينا إلى حوزتها. فهي تراه منحرفا، خارجا عن الجماعة يسفه أحلامها ويحتقر معتقداتها، لقد حق طرده، واستحق غضب المجتمع. وصدق أبو الطيب المتنبي حيث يقول:

أنا في أمة تداركها الله كصالح في ثمود

لقد رفع منزلة المصلح إلى درجة النبوة وفي نفس الوقت أعطانا صورة اقتبسها من تاريخ نبي ذاق الأمرين من قوم أذوه ولم يفهموا من رسالته شيئا. وكيف يقبل التجديد مجتمع انغلق على نفسه واعتقد أنه بلغ النهاية في العلم والثقافة؟ لقد أصبح رافضا لكل ما لا يوافق هداه، فلا يرجى إذن إصلاح قوم تعطلت عقولهم واستعبدتهم تقليد آبائهم. فما حيلة المصلح؟ وما عساه أن يفعل لتنفيذ خطته؟

لقد تعاقب على المجتمع الجزائري مصلحون شتى منذ بداية الاحتلال واعتقدوا أن الاستعمار ليس شرا كله وأن الإصلاح يمسك بيد الشعب ويلحقه بركب الحضارة، فنجد النخبة بعاصمة البلاد تنادي بالإصلاح، وتفوض أمرها إلى من تراه صالحا لينوب عنها أمام السلطات العليا الفرنسية. فهذا أحمد

بوضعية، من الأعيان يطالب بتغيير شامل يمس الإدارة والاقتصاد والأمن والثقافة والتعليم... فيقدم برنامجاً عريضاً¹ لوزير الحرب الفرنسي ليأمر بتنفيذه حسب المواعيد التي أعطتها الحكومة الفرنسية للشعب الجزائري بأنها تريد تحريره من "نير الأتراك" وتلحقه بالشعوب المتحضرة. وهذا حمدان بن عثمان خوجة، عالم جليل، تاجر ماهر، ومن أغنياء العاصمة الكبار، ويصرّح بما يلي: "نحن نظن بأن أمة كريمة لا تخترق عهودها وأنا سننعم بالحرية وسنعامل بكل عدل... فالفرنسيون رجال وستضمننا الأخوة إليهم، والحقيقة أن الحضارة قائمة على حقوق الناس، فليس لنا ما نخشاه من أمة متحضرة"²

فالأعيان بالعاصمة كانوا يعتقدون أنهم بين أحضان الحضارة وما عليهم إلا أن ينساقوا وراء رجالها ليتغير وضعهم ويساهموا في إدخال التقدم على الأمة الجزائرية، فيكونوا سبب ازدهارها بالأخذ بيدها تدريجياً، حتى يعمرها الفكر العصري، وتخرج من ركودها وانحطاطها.

لكن لما اصطلوا بنار الاستعمار وتعسفاً، تبين أن ما كان يُعد إصلاحاً ما هو إلا أوهم وبرق خلب يخدع به من لا تجربة له ومن يثق بالمحتل.

ولما عاين دعاة التقدم في ظل الاحتلال، سلوكات الجنود والضباط المدنيين الذين التحقوا بهم، وما يقومون به من تخريب، ونهب، وسطو على الأشخاص والأموال؛ تيقنوا أن هذه الحضارة قائمة على القوة ولا تجود بمكان للضعيف، فانكمش المجتمع على نفسه، ورفض الحوار مع غيره، ورغم المحاولات المتعددة لجرحه وراء المثل العليا التي أنتجت الثقافة الفرنسية، وما تتغنى به من ديمقراطية وحقوق الإنسان، بقيت الأمة حذرة، لا يغرها حلاوة كلام ولا تقديم مساعدات وبرامج، ولا نجاح بعض الأفراد مادياً أو علمياً.

فالإصلاح الذي يتقدم به المستعمر مشكوك في إخلاصه ولو أتى به مسلمون، وهذا ما وقع للبرنامج الإصلاحي الذي عرضه إسماعيل إيريان على الإمبراطور نابليون الثالث، وقد كان إسماعيل إيريان مترجماً عسكرياً واعتنق الإسلام، وتزوج جزائرية، وما فتئ يدافع عن الأهالي الجزائريين، ويندد بوضعيتهم السيئة. فقد فاز بتمرير بعض أفكاره إلى الإمبراطور، لكن بعد هزيمة هذا الأخير في حربه مع ألمانيا، انتهت كل الأماني، وعاد الحزب الكولونيالي إلى سياسة القمع، والتفكير، والتشريد.

فمما جاء في برنامج إسماعيل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي: "الزيادة في عدد الممثلين للأهالي في المجالس الولائية والمجالس البلدية، إنشاء عيادات للأهالي في الدوائر التي ليس فيها مستشفى؛ إلحاق طبيب بكل مكتب عربي لعلاج المرضى في العشائر؛ تنظيم الإسعافات العامة في

1. Mémoire de Boudierba, archives nationales.

2. Hamdan Khodja : Le Miroir, ed. Sindbad, Paris, p.174

صالح العشائر؛ تأسيس جمعيات تكون تعاضديات وجمعيات خيرية قد تكون الوسيلة الفعالة للقضاء على تأثير الطريقة؛ الزيادة في طبع نصوص بالعربية وتحرير كتب موجزة في صالح الأهالي.

"عندما يعمل الفرنسيون والأهالي في ورشة واحدة، يزول الاشمئزاز بسرعة؛ واختلاط المصالح يؤدي إلى تلاحم الأسر؛ ولابد من التأثير على الأجيال الناشئة بالتعليم العام وعلى الرجال الكهول بالشغل. إن الشركات الفرنسية الكبرى تسهل العملية الحضارية لأن العلاقات بين الجنسين تكون مراقبة بدقّة".¹

فالإصلاح في هذا البرنامج موجه للشباب والكبار ولكن الاهتمام بالصغار بإعطائهم ثقافة فرنسية متينة تدمجهم في الوسط الفرنسي وتبعدهم عن نفوذ أسرهم وتحصنهم بالنسبة للعادات والتقاليد، يبدو هو بيت القصيد، والرجوع إلى تربية الصغار يعتبر الحل الأمثل لمشكلة فرنسا المجتمع الجزائري.

وينصح بهذه الطريقة جزائريون لهم الكفاءة العالية في التربية من بينهم، مجدوب بن كلفات، الأستاذ بالثانوية ودار المعلمين بقسنطينة فيوصي بما يلي: "لابد من الذهاب بالطفل العربي إلى المدرسة، ولابد من انتزاعه من يدي ذويه الأميين، المتعصبين، العاجزين عن إدراك مزايا التعليم والحضارة الفرنسية. إنها الشبيبة التي يقوم على عاتقها مستقبل البلاد جزئيا... فبالتعلم إذن نستطيع أن نجعل من العربي رجلا مستتيرا وذا أخلاق وخصوصا فرنسيا".²

فالإصلاح له وظيفتان، الأولى نشر الثقافة الفرنسية، والثانية ضمان الأمن في المستعمرة. فالمتشبع بالقيم الحضارية الفرنسية لدينا زعم المحتل ولا يطالب بالجلاء حسب زعمهم، لقد تجرد من كل مقومات شخصيته وتقمص نموذج آخر، وهنا يكمن الصراع بين الثقافتين، ويشعر المواطن الجزائري، خريج المدرسة الفرنسية بأن تيارين يتنازعان، الوسط الاجتماعي الأصلي الذي يشكل الشخصية القاعدية، ينبهه كلما انحرف عن الجادة، والوسط الثقافي المظهري الذي يدفعه إلى التخلي عن أصالته والبحث عن المزيد من "التقدم والرفق".

وانتبه إلى هذا الجانب إسماعيل إيربان، فقال لدعاة الإصلاح: "حق للمواطن الأهلي أن يرد عليكم بقول: تريدون أن أصبح مثلكم، أتخلي عن نفسي، وأنكر آبائي، مجددا بكل سرعة معتقداتي، وتقاليدي، ومزاجي... لا أتبعكم في هذا الطريق. يطيب لي أن أشبههم كما يشبه التلميذ أستاذه، لكني أريد أن أبقى أنا أنا، أريد أن أحافظ على ماضي ولا أخرج بعنف من حياتي، ولو انطلقنا من نقاط مختلفة، فإننا نستطيع أن نتلاقى في مستقبل مشترك دون أن تبتلعوني".³

1. seguir. 2 ed. Paris 2000, pp.147-48. Ismail urbain : "L'Algérie pour les Algériens »

2. Madjdoub ben Kalafat: "De l'instruction des indigènes » Constantine, s.d.

3. ismayl urbain, op,cit,p.35

إذا هو الصراع الداخلي الذي يعيشه المثقف المغترب، فلا يدري أين يتجه، فهو مع فكرة الإصلاح لكنه يريد لها صادقة، ترفعه إلى مستوى الإنسان الكامل دون الاستغلال ولا الاستعباد، يأخذ من كل ثقافة ما طاب له فتزدهر شخصيته في منبتها، وتسقى من ينابيع شتى.

وقد حاولت المدرسة الإصلاحية الجزائرية أن تنفخ هذه الروح في المواطن الجزائري، فيكون متأصلاً في مجتمعه، متفتحاً على غيره، إذ كان تعليمه قائماً على قواعد صحيحة، وينطلق مؤسس هذه المدرسة، الشيخ عبد الحميد بن باديس من الإشكالية التي هي عبارة عن سلسلة من حلقات ثلاث لا تتفصل عن بعضها، فيقول: "لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم... ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم".¹ فالتعليم هو الأساس، به تستثير الجماهير وتؤدب الأطفال ويبرز العلماء، فالمجتمع الذي اعتنى به، يحقق النجاح لأفراده ويضمن لهم الرخاء، والنمو، ومن أهمله فقد المعنويات، والماديات، وانجر وراء التخلّف والتبعية، وأصبح لقمة سائغة في يد الأقوياء.

واهتمام الشيخ بالتعليم قبل القيام بكل حركة كان له مغزاه، فالأطفال، ومن هم في سن الشباب لهم قابلية لتلقي الدروس، ولهم حركية قلّ ما توجد عند الكهول، يقبلون على التغير بكل جدّ وحماس، ذكاؤهم صاف، وإرادتهم قوية يستسهلون كل العقبات، ويخوضون المعارك ولا يبالون، لكن التعليم الذي يربي العظماء لا بد أن يكون صالحاً، وصلاحه يكون بأسلوبه البيداغوجي، وبرنامج الحّي الذي يهمل القشور ويمسك اللبّ، لا يعتبر الطالب كيساً يحشى بل شعلة من الذكاء توقد، والتلميذ نسخة من أستاذه، كما أن الابن نسخة من أبيه.

ويوضح لنا ابن باديس صورة التعليم بقوله: "ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي، في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلم صلى الله عليه وآله وسلم، في صورة تعلمه، فقد صحّ عنه عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم: "إنما بُعثت معلماً".²

لقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم منزلة المعلم إلى درجة النبوة وجعل "العلماء ورثة الأنبياء" بما لهم من فضل على غيرهم وبما لهم من علم يهدون به الأمة وينتفع به الطلاب المتوافدون على دروسهم. هذه النخبة هي التي عرفها القرآن وميزها بالمحاسن والمكارم بقوله: "وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين".³

فمكانة العلم في المجتمع كالنجم في السماء إن شعر بمسؤوليته العظمى وعمل لصالح شعبه فلا يكتفي بتعليم الحروف ولا بتكرار ما تركه السلف الصالح فإن أراد أن يتبع سنة النبي صلى الله

1. عبد الحميد بن باديس: "أثر الإمام عبد الحميد بن باديس"، منشورات وزارة الشؤون الدينية، قسنطينة، 1985، ج4، ص4.

2. نفس المرجع.

3. الأنبياء/73.

عليه وسلم فعليه أن يتدبر ويجتهد ويخوض المعارك بقلمه ولسانه ويده ولا يقيم بمدرسته منتظرا زائريه، إن النضال حركية تتجسد في الميدان وليس سكونا مقوقعا يكسوه حسب إسلامه.

وهذا ما كان يعيه المفكر مالك بن نبي على المصلح وعلى الحداثي أيضا فيقول: "فالخطأ الذي وقع فيه المحدثون ودعاة الإصلاح ناتج عن أن كليهما لم يتجه إلى مصدر إلهامه الحق، فالإصلاحيون لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي، كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي.

"ومع ذلك فإن الفصل بين الحركتين ضروري من الناحية النفسية، فلقد كان السلفي وحده هو الذي يحمل فكرة النهضة وهو إن كان لم يحقق شروطها العلمية بصورة منهجية فإنه على الأقل لم يضيع هدفها الجوهري، لقد كان يعي تماما أوضاع بيته حتى أنه ألح في المطالبة بأن يؤدي كل واجبه تاركا للمحدثين الضرب على نغمة (الحقوق)".¹

فمالك بن نبي يريد إصلاحا نضاليا يحتل كل الأماكن ويسمع صوته في كل المحافل ولا يقتنع بتلقيين دروس للتلاميذ ولا بتوجيه مواظ من منبر المسجد لجماهير أنها صاغية وقلوبها خاشعة، فهذه العملية لا تتطلب جهدا ولا تتذر بخطر، فالمفروض أن الإصلاح يقتحم أماكن الفساد في الشارع والسوق والمقهى....

هذه أمنية المصلح وغيره لكن ما حيلة المرء، الذي يعاني من القمع في مدرسته وفي مسجده، ورغم الظروف القاسية يحاول أن يبلغ الرسالة، إنه جهد ضئيل ربما، لم يقم به إلا القليل، فمن الجانب المنهجي لبرنامج التعليم يمكن انتقاد طريقة التدريس ورتابتها، إن الفكر الإصلاحي توقف فلم يبتكر، وهذا يعتبر عجزا وصورة للتخلف الذهني ومالك بن نبي لم تقنعه المبررات فهو يراها هروبا من المسؤولية، وأن المسلم لم يسخر كل قواه لتحسين وضعه وإنتاج ثقافة حية تدفع إلى الحركية وحب التغير. "فإن الثقافة، يقول مالك بن نبي، "تبدأ متى تجاوز الجهد العقلي الذي يبذله الإنسان حدود الحاجة الفردية".²

فمشكلة الإصلاح في المجتمع الجزائري معركة خاضتها النخبة المثقفة كل حسب استطاعتها غير، أن الشيخ ابن باديس حقق الجزء الأكبر من العملية لقد تفانى في العمل في النفوس بتوعية الجماهير وتعليم التلاميذ وتنقيف المتعلمين بالقلم، فأعد العدة لينقلب الإصلاح إلى ثورة، فكان نوفمبر هو الشعلة التي أوقدت نار ثورة التحرير المجيدة.

1. مالك بن نبي: "وجهة العلم الإسلامي" ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر، بيروت 1970، ط: 2، ص 76-77.

² نفس المرجع، ص 72.

بعض المراجع:

- 1- أحمد أمين: زعماء الإصلاح. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1671، ط 3.
- 2- عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة 1985، ج 6.
- 3- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت 1970، ط 3.
- 4- Ismayl Urbain. L'Algérie pour les Algériens. Séguiet, Paris 2000, 2ed.
- 5- Madjdoub Ben Kalafat de L'Instruction des indigènes, Constantine, s.d.